الجامع الأزهر

الإدارة العامة للثقافة الإسلامية

الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين

بقلم

يوسف القرضاوى : أحمد العسال

بمراقبة البحوث والثقافة بالأزهر

مطبعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المعركة بين الاسلام وخصومه معركة قديمة جديدة ، وسنظل قائمة ما بقى فى الوجود حقائق وأباطيل .

وخصوم الإسلام صنفان :

صنف من متعصبى الأديان الأخرى ، وبخاصة المستشرقون والمبشرون ، الذين يسوءهم انتشار الإسلام ، وامتداد نوره فى كل قارة ، رغم ما ينقص أهله ودعاته من طاقات وإمكانيات ، ورغم ما يعوقه عن الانطلاق من قيود داخلية وخارجية .

والصنف الثانى من الماديين الملحدين الذين يخاصمون الأديان جميعا ويختصون الإسلام بمزيد من العداوة والنقمة ، لأنهم يعلمون أنه الدين الفذ الذى يحمل نظاما كاملا للحياة ، يزاوج بين الروح والمادة والفرد والمجتمع ، والدنيا والآخرة ، وأنه الدين القادر على إمداد أتباعه بكل المقومات والطاقات المعنوية والروحية التى تضمن القوة والغلبة فى معركة الحياة .

وليس لهؤلاء وأولئك سلاح إلا تصيد الشبهات الواهية ، وتلفيق الأكاذيب والافتراء على الله وعلى الناس ، وعلى الحق والتاريخ .

وآخر ما رأينا من هذه الملفقات ما نشره شيوعيو العراق فى الفترة الأخيرة مما عرف باسم « الكراسة الرمادية » . وقد انتظرنا حتى ترجم إلينا نصها الكامل من الانجليزية إلى العربية . وقرأناها كلمة كلمة ، فلم نجد فيها إلا افتراء والتضليل اللذين لا يروجان عند البسطاء فضلا عن المثقفين والعقلاء .

زعم هؤلاء - حسب تفسيرهم للتاريخ - أن ظهور الاسلام كان نتيجة للعوامل الاقتصادية والاجتماعية التى كانت تسود الجزيرة العربية قبل الاسلام وأن الوثنية كانت فى طريقها إلى الفناء . وأن التحنف — الميل إلى التوحيد - كان ظاهرة منتشرة . ومحمد إذن ليس رسولا من الله ، والقرآن ليس وحى الله ، لأن « الله » هذا غير موجود فى نظرهم .

شكك هؤلاء فى تواتر القرآن ، وادعوا أن عدة « قرآنات » أخرى ألفت لمعارضته ، وزعموا أن هذا القرآن يعارض العلم والتقدم ، ويخبر بأمور لم تتحقق إلى الآن كقيام الساعة فى وقت قريب ، واستغلوا ما قاله علماء المسلمين من وجود « متشابهات » فى القرآن للتشكيك فى بيانه ووضوحه .

وردد هؤلاء ما يقوله بعض المستشرقين عن « الحديث النبوى » وقيمته العلمية والتاريخية ، وتحرى علماء الاسلام فى قبوله .

وقالوا عن العقيدة الاسلامية : إنها عقيدة « الجبر المطلق » وليس للإنسان فى الاسلام حرية أو اختيار .

وادعو أن الصلاة منقولة من بعض الديانات القديمه ، وأن المسلمين يحجون إلى حجر فى مكة .

وافتروا على الفقه الاسلامى فى نشأته ومذاهبه وغايته ، وادعوا أنه نشأ فى عهد الخلافة العباسية لتبرير أعمال الخلفاء الخ . . .

وزعموا أن الاسلام يؤيد الاقطاعيين ويعترف بالطبقية ويقر بالتفاوت الذى يجعل بعض الناس عبيدا لبعض . كما أنه يقر الرق ، ويبارك ملاك الرقيق .

وزعموا فيما زعموا ، أن الحاكم أو الخليفة فى الاسلام نائب عن الإله أو وكيل له ، وأن الشعب مسخر لطاعة الحاكم ، وأن بيت المال ملك خاص للخليفة .

وكرروا مفتريات المفترين عن وضع المرأة فى الاسلام وطغيان الرجل على المرأة ، وعن سياسة القتال والفتح الاسلامى . . . الخ تلك الأكاذيب التى نعرفها .

والخلاف بيننا وبين هؤلاء القوم خلاف جذرى ، خلاف فى الأصول نفسها . لهذا كان لابد فى ردنا أن نقيم الأدلة على صحة الإيمان بوجود الله أولا ، وصدق النبوات ثانيا ، وإذا تأسس هذان الأصلان كان من السهل إثبات نبوة محمد وأنه رسول الله ، وأن القرآن كتاب الله حقا .

أما الشبهات والمفتريات الأخرى فإن دفعها ونقضها ليس بالعسير على أى دارس للإسلام .

ومن هنا لم نجد صعوبة أنا وزميلى الأستاذ أحمد العسال حين كلفنا السيد المدير العام للثقافة الاسلامية الدكتور محمد البهى ، الرد على هذه « الكراسة » وما فيها من أغاليط وأضاليل .

ونرجو أن نكون بهذا الرد الموجز المركز قد أدينا بعض الواجب علينا فى الذود عن ديننا ، والدفاع عن أمتنا . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ؟

يوسف القرضاوى

حملة قديمة :

الحملة على الأديان ليست بنت اليوم ولا وليدة الأمس وليست من مبتكرات المادية الماركسية التى زعمت أن الدين أفيون الشعوب .

قال الأديب الفرنسى « فولتير » إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء .

وفولتير أيضا لم يكن مبتكرا لهذا فمن قديم ظهر مثل هذا الزعم عند «السوفسطائيين» من اليونان الذين أنكروا حقائق الأشياء أو شككوا فيها وكان فيما روجوه من مغالطات وتشكيكات أن الإنسان فى أول نشأته كان لا يخضع إلا للقوة لا ولا لقانون ، ثم كان أن وضعت القوانين ، فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة فهنالك فكر بعض العباقرة فى إقناع الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شىء وتسمع كل شىء ، وتهيمن بحكمتها على كل شىء (١) .

« ولسنا ننكر أن تكون هناك عقيدة معينة قد استحدثت فى عصر ما أو أن يكون ثمت وضع خاص من أوضاع العبادات قد جاء مجلوبا مصنوعا فذلك سائغ فى العقل بل واقع بالفعل . أما فكرة التدين فى جوهرها ، فليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان .

التدين غريزة فطرية :

يقول معجم « لاروس » للقرن العشرين : إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية . . . وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى ، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية .

ويقول هنرى برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بدون ديانة » .

ويقول أرنست رينان فى تاريخ الأديان : « إن من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة فى الحياة الأرضية » .

ويعلق الأستاذ محمد فريد وجدى على هذه الكلمة فى دائرة معارفه فيقول فى مادة «دين»:

---

(١) الدين للمرحوم الدكتور دراز ص ٧٤ وما بعدها .

« نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها، ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان بل إن هذا الميل سيزداد ... ففطرة التدين ستلاحق الإنسان مادام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه .

الإيمان بالألوهية ضرورة عقلية :

والحق أن الإيمان بقوة عليا — خلقت هذا الكون وقامت بتدبيره ورعايته على أحكم نظام — ضرورة عقلية بعد كونه ضرورة فطرية وجدانية ، فإن العقل الإنساني بغير تعلم ولا اكتساب يؤمن بقانون السببية ولا يقبل فعلا من غير فاعل ، ولا صنعة من غير صانع .

وبدون التدين والإيمان سيظل هذا السؤال الذى أثاره القرآن حائراً بغير جواب « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ؟ » وبداهة لم يخلقوا من غير شيء ، وطبعاً لم يخلقوا هم أنفسهم ، ولم يزعم أحد أنه خلق ذرة فى السموات أو فى الأرض، فلم يبق إلا الاعتراف بوجود الخالق العليم الحكيم الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

والذين فروا من الاعتراف بالألوهية الخالقة لأنها شيء غير مشاهد ولا محسوس ولا يدخل تحت التجربة ، لم يمكنهم إلا أن يلجئوا إلى قوة غامضة خفية هى الأخرى أطلقوا عليها « الطبيعة » .

وقد كان الوثنيون والجاهليون أقوم فكراً وأصرح رأياً حين اعترفوا بموجب الفطرة ومقتضى العقل فلم يلفوا ويدوروا كهؤلاء الذين يقولون : بالدهر والطبيعة ، فحين سئلوا من خلق السموات والأرض ؟ قالوا فى صراحة وصدق : خلقهن العزيز العليم . « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون : الله »

* * *

إرسال النبيين من آثار الرحمة الإلهية :

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الإلهية الواسعة ألا يترك الناس سدى أو هملا يتخبطون على غير هدى أو يختلفون بغير حكم ولا مرجع ... فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه . وليضعوا لهم أسس الحياة الفاضلة ، وليرسموا لهم الطريق إلى الله وإلى سعادة الآخرة

والأولى « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

وكان من حكمة الله أن يكون هؤلاء بشراً لا ملائكة يمشون من بين أقوامهم ليكونوا آنس بهم وأعرف بأحوالهم وأقدر على التأسى بأخلاقهم وقد تعجب بعض الناس أن يرسل الله بشراً فرد الله عليهم « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم » .

وقد أيد الله هؤلاء المرسلين بالحجة القاطعة والآيات البينات على صدق دعوتهم وأنهم رسل الله حقا ولم يملك المنصفون من معاصريهم إلا أن يذعنوا لهم ويؤمنوا برسالتهم « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » وأوضح مثل على ذلك سحرة فرعون الذين انتقلوا من الإيمان بربوبية فرعون إلى الإيمان الحق و « قالوا : آمنا برب هرون وموسى » ... « لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا » .

وقد تعهد الله البشرية فى شتى عصورها بأنبياء ومرسلين كانوا منارات هادية وقادة مبينين ومعلمين إلى أن أكمل الله الدين وختم الرسالات ببعثة النبى الأمى محمد بن عبد الله بالرسالة العامة الخالدة ليكون للعالمين نذيرا « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

رسالة الإسلام

يخطئ كل الخطأ من يحاول أن ينعت الإسلام بأنه رسالة أرضية اخترعها بشر ونسقها فكر إنسان ، أو أنه ظاهرة اجتماعية أوحت بها أسباب تاريخية أو عوامل اقتصادية .

... إن من يحاول هذه المحاولة يخدع نفسه أولا ويكذب على الناس ثانيا ... ذلك أنه يعصب عينيه ويستر عقله عن كل عوامل المعرفة الصحيحة ، فهو يتجاهل التاريخ الصحيح ، ويضل عن الواقع الاجتماعى والعملى فى جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده ... فإن أحوال القبائل العربية فى مكة وما حولها معروفة فى التاريخ كانت حياتها حياة انتجاع وسفر وتجارة ، وسمر ولهو ، وحرب وخصام على ناقة أو فرس — كما نعرف من حرب البسوس ، وداحس والغبراء .

ومن ناحية العقيدة معروف كذلك أنه كان لكل قبيلة وثن تعبده وتستعينه وتستقسم عنده ، وكانت الكعبة معظمة عندهم ينوارثون تعظيمها من قديم وكانت كل قبيلة تأتى بصنمها فتجعله حول الكعبة حتى بلغ عدد الأصنام فى الكعبة ثلثمائة وستين .

ولم تكن الوثنية سطحية فى بلاد العرب بل كانت متغلغلة فى أعماق حياتهم : ظهر ذلك فى حجهم ونذورهم وبحائرهم وسوائبهم

وسائر شئونهم ، وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » .

والتحنف قبل الإسلام لم يعرف به إلا أفراد معدودون كانوا أسلم فطرة وأنضج عقولا من أن يجاروا تيار الوثنية فى قومهم فهجروا الأوثان وتعبدوا على ما بلغهم من دين أبيهم إبراهيم ، أو اعتنقوا ديانة كتابية كالنصرانية .

ومن هؤلاء أربعة نفر ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم ، فالقرشيون عمرو بن نفيل ابن عبد العزى العدوى ، وورقة بن نوفل الأسدى الذى قرأ الكتب القديمة ، وعرف النصرانية واتبعها ، وعثمان بن الحويرث الأسدى والرابع عبيد الله بن جحش ابن أسد بن خزيمة ...

ولم يكن لهؤلاء دعوة أو أثر فى قومهم يخفف من غلواء وثنيتهم وتمسكهم بأصنامهم حتى إن دعوة الرسول محمد إلى التوحيد لقيت استنكاراً بالغاً ورفضاً صارماً ، أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشئ عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » .

ولمعرفة الرسول بعصبية قومه لوثنيتهم لم يفاجئهم بدعوته إلى التوحيد وتحسس طريقه إلى القلوب لمدة ثلاث سنوات ثم بدأ ينذر عشيرته الأقربين ويتدرج فى التبشير بالدعوة ومع هذا لم يكد يعثر إلا على الفرد بعد الفرد مدة ثلاثة عشر عاما لقى فيها مرير الأذى وصنوف العذاب هو وأصحابه واضطر أن يأمرهم بالهجرة إلى الحبشة مرتين .

وأعقب هذا الاضطهاد الفاسى فى مكة صراع دام فى المدينه دافعت به الوثنية عن نفسها وألقت بكل ما تملك من أرواح وأموال حتى لا يقوم فى الأرض دين التوحيد ...

فهل يمكن أن يقال بعد هذا إن الجزيرة العربيه كانت تتطور إلى التوحيد بتأثير العوامل الاجتماعيه ، وأن التحنف كان ظاهرة عامة قبل الإسلام . ؟!!

القرآن هو الآية الكبرى على رسالة محمد :

كان من حق الناس أن يقولوا لمن يدعى النبـــوة عن الله : ائت بآية إن كنت من الصادقين وقد أيد الله رسله بآيات كونية ناسبت عصرهم وما برع فيه قومهم من مثل قلب العصا حية لموسى ، وإحياء الميت وإبراء الأكمه لعيسى ..

ولما كانت دعوة محمد دعوة عامة خالدة للإنسانية كلها وللأجيال كلها شاءت حكمة الله

أن يؤيده بآية عامة خالدة أيضاً ، آية عقلية معنوية هى (القرآن الكريم) .

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين »

« أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » وقد اشتمل القرآن على وجوه من الإعجاز خرست أمامها ألسنة المعارضين وانقطعت حجتهم أمام التحدى الواضح المثير

« فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

« قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

« قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » وحقت عليهم الغلبة والإذعان التى سجلها التاريخ والواقع .. وصدق قول القرآن نفسه « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

واستطاع هذا الكتاب المبين أن يحدث أكبر ثورة نفسية واجتماعية غيرت وجه التاريخ وأنشأت أمة من العدم قوتها من ضعف وهدتها من ضلالة وجمعتها من شتات . فأصبح لها بفضل هذا القرآن كيان واحد وتشريع يحتكم إليه وأخلاق توجه سلوكها وأعمالها وجهة الخير ، ورسالة عالمية تدعو الناس إليها « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » .

القرآن آية وهداية :

وقد امتاز القرآن عن آيات الأنبياء جميعا بأنه آية وهداية معا أو كما وصف نفسه : « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

والآية المعجزة إذا كانت من جنس الرسالة والدعوة كانت أدل على صدق من أيد بها وأثبت عند العقل من الآيات الخارجة عنها .

وضرب بعض العلماء لذلك مثلا : رجلا ادعى فى بلاد كثرت فيها الأمراض أنه طبيب وأن دليله على ذلك أنه ألف كتابا فى علم الطب ، يداوى المرضى بما دونه فيه فيبرءون فاطلع عليه الأطباء البارعون ، فشهدوا بأنه خير الكتب فى الطب وما يتعلق به من عمل ثم عرض عليه من لا يحصى عدداً من المرضى وقبلوا ما وصفه لهم من الأدوية فبرئوا من عللهم ، وصاروا أحسن صحة ، فهل يمكن المراء فى صحة هذه الدعوى ـ دعوى الطبيب ـ مع هذين البرهانين العلمى والعملى ؟ .

كلا وإن العلم بطب الأرواح أعلى وأعز منالا من طب الأجسام ، إن معالجة أمراض الأخلاق وأدواء الاجتماع أعسر من مداواة أعضاء الأفراد .

ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن مشتمل على العقائد الصحيحة والآداب العالية ، وأصول التشريع الاجتماعى والمدنى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم عالج به أمة عريقة فى الشقاق وحمية الجاهلية ، غريقة فى الجهل والأمية ، ورذائل الوثنية ، فشفيت واتحدت وتعلمت الكتاب والحكمة ، وسادت الأمم من بدو وحضر ، مع أنه كان أميا لم يتعلم شيئا من العلوم ولم يتمرس فى سياسة الشعوب .

« كفاك بالعلم فى الأمى معجزة
فى الجاهلية والتأديب فى اليتم »

لو استدل ذلك الطبيب الجسدانى على صحة دعواه بعمل غير مألوف للناس ، ولكن لا علاقة له بالطب ، لأمكن المراء فى صحة دعواه ، كذلك شأن هذا النبى فى ادعائه أنه مرسل من الله لهداية البشر ، فإن كتابه العلمى المؤيد بنجاح العمل به ، أدل على كونه وحيا أوحاه الله إليه من جعل عصا حية أو إحيائه ميتا لأن هذين - على غرابتهما - ليسا من موضوع الإرشاد والتعليم ، كما أنهما ليسا من موضوع الطب ، فهما إن دلا على صدق الرسول فدلالتهما ليست فى أنفسهما .

والإتيان بعمل خارق للمألوف فى العادة من سنن الكون ، هو دون الإتيان بالعلوم العالية الإلهية والتشريعية من غير تعليم ، فكيف بالإتيان بأنباء الغيب : الماضى والمستقبل ؟ فكيف بصلاح حال من عملوا بهذه العلوم دينا ودنيا ؟ .

فالقرآن إذا برهان على أن ما فيه من الطب الروحانى والاجتماعى وحى من المدبر الحكيم لا يمارى فيه إلا معاند مكابر أو مقلد جاهل (١) .

* * *

أين المعارضون للقرآن ؟ :

ظهر بعد نجاح الدعوة الإسلامية فى الجزيرة العربية - لأسباب نفسية وقبلية - بعض مدعى النبوة ، فماذا كانت حجتهم ؟ وما هى كتبهم التى دعوا إليها الناس ، وماهى أعمالهم التى ترجمت رسالاتهم ؟.

فى العام التاسع والعاشر من هجرة الرسول ، ثم فى عهد أبى بكر ، تنبأ مسيلمة الذى ظهر فى اليمامة فى قومه بنى حنيفة - مناوئة لقريش أن تستأثر بالنبوة فى زعمهم وزعمه .

والأسود العنسى الذى تنبأ فى (اليمن) .

وطلحة بن خويلد الأسدى الذى ظهر فى قبيلة (أسد) .

---

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٢١٨ .

وسجاح بنت الحارث التى ظهرت فى (بنى تغلب) .

وقد تحدثت الروايات عن مسيلمة وغيره أنهم أنشئوا كتبا يعارضون بها القرآن ، لم تسع ذاكرة الأدب والتاريخ شيئا منها إلا ما تندرت به الروايات من مثل قول مسيلمة : « يا ضفدع يا بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، نصفك فى الماء ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » .

وسواء صحت هذه الروايات أو لم تصح فإن التاريخ الذى ترك لنا تراثا هائلا من الشعر والحكم والأمثال وغيرها لم يجد شيئا ذا قيمة أدبية يمكن أن يسجله أو يحتفظ به .

ولم يستطع باطل هؤلاء أن يصمد طويلا أمام الإسلام الحق فسرعان ما انتهى أمرهم ، بعضهم بالموت وبعضهم بالإذعان للإسلام كما فعل طلحة الذى انضم إلى صفوف المجاهدين المسلمين بحماسة بالغة ، يكفر بها عن ماضيه فى مناوأة الاسلام .

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

وفى عهد الدولة العباسة تحكى لنا بعض الروايات عن أشخاص اتهموا بمعارضة القرآن منهم « ابن المقفع » ولم تعزز هذه التهمة بذكر نصوص هذا القرآن المقلد .

فقد ذكر ابن قيم الجوزية والباقلانى أن ابن المقفع عندما انتهى إلى قوله تعالى : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور » إلى قوله تعالى : « وقيل بعداً للقوم الظالمين [١] » . عدل عن إنشاء قرآنه وقال : هذا ما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، وترك المعارضة ، وأحرق ما كان قد اختلقه .

ويقول الباقلانى : إن قوما ادعوا أن ابن المقفع عارض القرآن فى كتابه «الدرة اليتيمة» ولم يجد الباقلانى فيما أنشأ ابن المقفع بهذا الكتاب ما يصح أن يكون تقليداً للقرآن[١] .

ومن الذين اتهموا بهذه التهمة وهى محاولة محاكاة القرآن « أبو العلاء المعرى » فى كتاب الفصول والغايات ، وما ورد فى هذا الكتاب « أقسم بخالق الخيل . والريح الهابة بليل بين الشرط ومطالع سهيل . إن الكافر لطويل الويل . وإن العمر لمكفوف الذيل . فعد مدارج السبيل ، وطالع التوبة من قبيل تنج وما إخالك بناج » .

ويقول الرافعى فى إعجاز القرآن [٢] : ولا ريب أن هذا فرية على المعرى أراده بها عدو حاذق ، لأن الرجل أبصر بنفسه ، وبطبقة الكلام الذى يعارضه ، وما أراه إلا أعرف الناس باضطراب أسلوبه ، والتواء مذهبه ... الخ .

---

(١) القرآن لمحمد صبيح ص ١٥٨ .

(٢) ص ١٨٩ .

ويقول طه حسين فى كتابه « مع أبى العلاء فى سجنه » (١) هل أراد أبو العلاء إلى معارضة القرآن فى الفصول والغايات كما ظن بعض القدماء ، نعم ، ولا .

نعم : إن فهمنا فى المعارضة مجرد التأثر ومحاولة المحاكاة ، إن فهمنا من المعارضة أن أبا العلاء قد نظر إلى القرآن على أنه مثل أعلى فى الفن الأدبى فتأثره ، وجد فى تقليده ، كما يتأثر كل أديب بما يعجب به من المثل الفنية العليا ، ذلك شىء لا شك فيه ، فأيسر نظر فى كتاب « الفصول والغايات » يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلد قصار السور وطوالها ، وليس المهم أنه وفق فى هـذا التقليد أو لم يوفق بل من المحقق أن التوفيق لم يقدر له كما لم يقدر لغيره ، بل من المحقق أيضا أنه لم يظفر إلا بمثل سجع الكهان ، ولكن المهم أن هذه المحاولة ظاهرة ملموسة فى الكتاب ولا تلزمه إثما ولا حوبا .

ولا : إن فهم من المعارضة الاستجابة للتحدى ومحاولة الإتيان بسورة أو سور مثل القرآن فهذا خاطر ما أحسبه خطر لأبى العلاء ، فقد كان أشد تواضعاً من أن يبلغ به الكبر إلى هذا ، وقد كان أعقل من أن يطاول ما لا سبيل إلى مطاولته ... إلخ .

(١) ٣٣٦

وآخر ما عرفنا من محاولات المتنبئين الذين يتحدثون عن صلتهم بوحى السماء ، وأنه ينزل عليهم قرآنا ، كما كان ينزل القرآن على محمد هى محاولات غلام أحمد الهندى القادیانى وميرزا على الباب ، وتلميذه البهاء .

ومن حسن الحظ أن أتباع هؤلاء لا يظهرون هذه القرآنات المزعومة ، بل يسترونها كما تستر العورات . . ومن استطاع بوسيلة ما أن يقرأ شيئا من هـذه الكتب لم يجد إلا الغثاثة والتفاهة الفكرية والبيانية ... وخرج منها بيقين أعمق بأن هذا القرآن من عند الله « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

الإسلام عقيدة ونظام :

والإسلام الذى بعث به محمد وكان القرآن مصدره الأول ليس — كما يظن القاصرون دينا لاهوتيا ، وليس عقيدة فقط تعنى بالجانب الروحى للإنسان دون أن تعنى بتنظيم علاقته بالكون ، وعلاقته بالحياة ، وعلاقته بإخوانه بنى الإنسان أفراداً وأسراً ومجتمعات ودولا .

كلا إن الإسلام عقيدة شاملة ينبثق عنها نظام عالمى كامل تقوم على أساسه أمة عالمية متوازنة أبرز سماتها ما وصفها به القرآن : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » ، « كنتم

خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

* * *

مزايا العقيدة الإسلامية

وللعقيدة الإسلامية مزايا وخصائص لا تتوافر لغيرها من العقائد الدينية فهى عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ، تتلخص فى أن وراء هذا العالم المنسق البديع المحكم ربا واحداً ، خلقه ونظمه ، وقدر كل شىء فيه تقديراً وهذا الرب والإله ليس له شريك ولا شبيه ، ولا صاحبة ولا ولد ، « بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون » .

وهذه عقيدة واضحة مقبولة . فالعقل دائما يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ويريد أن يرجع الأشياء دوما إلى سبب واحد والواقع المطرد يثبت أبداً أن تعدد الإرادات لا ينتج عنه أثر متكامل أو نظام متسق والقرآن يقرر هذه الحقيقة فيقول : «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » .

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ، ولا مناقضة لها . بل هى منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وهى عقيدة ثابتة محددة ، لا تقبل الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل ، فليس لحاكم من الحكام ، أو مجمع من المجامع العلمية . أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية ، أن يضيف إليها ، أو يحور فيها ، وكل تحوير أو إضافة مردود على صاحبه ونبى الإسلام يقول : (من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد) أى مردود عليه والقرآن يقول : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » .

وعلى هـذا فكل البدع والخرافات ، والإضافات التى لصقت بعقائد المسلمين أو دست فى بعض كتبهم ، أو أشيعت بين عامتهم - باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه .

* * *

شبهات حول العقيدة «الجبر والاختيار»

مسألة الجبر والاختيار ، مسألة حار العقل البشرى فى الوصول إلى رأى قاطع فيها وتنازع فيها الفلاسفة ، وعلماء الأخلاق ، والنفس والتربية وغيرهم منذ تفلسف الإنسان إلى اليوم وبحث .

وعقيدة الإسلام فى هذا هى العقيدة المتوازنة المطابقة للفطرة السليمة والواقع المشاهد .

فالإنسان بالنسبة لهذه العقيدة ، حر مسئول عن نفسه وعمله — فى دائرة أعماله الاختيارية — له أن يقدم وله أن يحجم كما تشهد بذلك بديهته وإحساسه ، وكما تشهد نصوص القرآن نفسه « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » « فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » إلى غير ذلك من آيات تبلغ الستين أو تزيد ، كلها تقرر حرية الإنسان وكسبه ، ومسئوليته عن عمله « ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

ولم يكتف القرآن بهذا التقرير الإيجابى ، ولكنه زاد على ذلك فحمل بقوة على الجبريين الذين يلقون بشركهم وأوزارهم على كاهل القدر محتجين . بمشيئة الله تعالى فى فعل ما فعلوا ، أو ترك ما تركوا .

وفى أربع سور من القرآن يرد الله تعالى على هذا الزعم الباطل فى سورة الأنعام : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون قل : « فلله الحجة البالغة » .

وفى سورة النحل « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » .

وفى سورة يس « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين » .

وفى سورة الزخرف « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » .

وبهذه الردود الصريحة على الجبر من القدماء قل هل عندكم من علم . . ؟ كذلك فعل الذين من قبلهم . . إن أنتم إلا فى ضلال مبين — مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » عرف موقف القرآن الحاسم من مشكلة الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية .

بيد أن الإنسان - كما هو الواقع - ليس مطلق الإرادة ، كامل الاختيار ، بحيث يفعل

كل ما يشاء وينفذ كل ما يريد ، ولو فعل لكان إلها .

ولم يستطع أحد - مهما بلغ فى الانتصار للحرية الإنسانية - أن ينكر محدودية الإرادة البشرية ، فحكموا فيها الوراثة أو البيئة أو كليهما ، وعبر عن ذلك بعض الفلاسفة بقوله: « الإنسان حر فى ميدان من القيود » .

حتى أولئك الماديون الجدليون قيدوا الإنسان بوسائل الإنتاج وظواهر الاقتصاد فهى التى تكيف تفكيره وسلوكه . وتوجه سير أحداثه ، وبذلك نزلوا بالإنسان إلى أحط مستوى من الجبرية حين جعلوه عبدا خاضعا لمظاهر المادة ، لا سيداً مهيمنا عليها كما يقرر الإسلام .

هذه الحقيقة المتفق عليها - محدودية الإرادة البشرية - قررها الإسلام فى صورة أشرف وأكرم للإنسان من الجبرية المادية أو التاريخية فالإنسان فى عقيدة الإسلام حر مختار فى دائرة ما رسم الله للوجود من سنن يجريها بقدرته ومشيئته ووفق علمه وحكمته - على أجزاء الكون كله ، ومنها هذا الإنسان .

الإنسان إذاً حر ، لأن الله أراد له الحرية أو هو يشاء ، لأن الله قدر له أن يشاء : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

ولا عجب أن يذكر القرآن - بجانب حرية الإرادة الإنسانية - عمل الإرادة الإلهية ، وهيمنة القدر الأعلى ، الذى يرعى الإنسان والكون جميعا « إنا كل شىء خلقناه بقدر » «ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا» ، « فعال لما يريد » ، « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » .

وإيمان المسلم بقدر الله ليس إيمانا بعقيدة جبرية ولا بمذهب أهل الصدفة والاتفاق ، وإنما هو إيمان بأن الكون لا يمشى بغير غاية ولا يسير بغير تدبير ، كيف وكل ذرة من ذراته فى الأرض أو فى السماء يحيط بها علمه وتجرى عليها مشيئته وقدرته وفق حكمته البالغة ، ورحمته الواسعة ... « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

هذا والإيمان بالقدر على هذا النحو لا ينافى الاجتهاد فى العمل ، واتخاذ كل ما يمكن من أسباب ، فإن الله كما كتب المسببات كتب الأسباب ، وكما قدر النتائج قدر المقدمات ، فهو لا يقدر للطالب مثلا النجاح فحسب بحيث يصل إلى هذه النتيجة عمل أو لم يعمل ولكنه تعالى قدر له النجاح ، بوسائله من جد وحرص وانتباه ووعى وصبر ومداومة إلى آخر هذه الأسباب فهذا مقدر مكتوب وذاك مقدر مكتوب .

وإذا فالأخذ بالأسباب لا ينافى القدر

بل هو من القدر أيضا ولهذا حين سئل صلى الله عليه وسلم عن الأدوية والأسباب التي يتقى بها المكروه : « هل ترد من قدر الله شيئا ؟ كان جوابه الفاصل : هي من قدر الله ».

ولما انتشر الوباء في بلاد الشام قرر عمر بمشورة الصحابة ، العدول عن دخولها والرجوع بمن معه من المسلمين ، فقيل له : أتفر من قدر الله يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت إن نزلت بقعتين من الأرض إحداهما مخصبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت المجدبة رعيتها بقدر الله .

والرسول صلى الله عليه وسلم - وهو أقوى الناس إيمانا بقدر الله - كان أكثر الناس اتخاذا للأسباب وعملا بمقتضاها ، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش ، وبعث الطلائع والعيون ، ولبس المغفر على رأسه ، وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة ... إلى آخر ما نعرف من سيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه المهتدين .

ومع وضوح هذه القضية في الإسلام على نحو ما رأينا قولا وعملا ، ونظرا وتطبيقا فإن النبي صلى الله عليه وسلم من الناحية العملية كمرب وقائد وإمام أمر أصحابه - سدا للذريعة ، ودرءا للفتن - أن يغلقوا أبواب الجدل العقيم حول المسائل الشائكة التي حارت فيها العقول من قديم ، وهدى الوحي الإلهي الناس فيها إلى القدر الذي فيه نفعهم في الدين والدنيا ... ومنها « مسألة القدر » .

قال الشيخ محمد عبده : « ولكن وا أسفاه نشأت رءوس بين المسلمين كأنها رءوس الشياطين ... جاء الموالي من عجم الفرس والرومان ، ولبسوا لباس الإسلام ، وحملوا إليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق ، وأحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد ، وخالفوا الله ورسوله في النهي عن التكلم في القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزوروا الكلام حتى كان ما كان من تفرق المسلمين شيعا ، والله يقول لنبيه : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ».

وجد بين المسلمين طائفة تعرف (بالجبرية) ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يعذلها الحق ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ، وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار وهو مذهب الجبر والعمل وصدق الإيمان ... إلخ .

حول الآخرة والإيمان بها :

يثير بعض الماديين المتحذلقين غبارا حول ما ذكره القرآن ، بل الكتب السماوية جميعا عن انتهاء هذه الحياة ، وقيام الساعة ، ويوم الجزاء ، والجنة والنار .

وكان مما أثاره هؤلاء : أن القرآن يقول : « لعل الساعة تكون قريباً » وقد مضى أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، ولم تقم الساعة بعد ونسى هؤلاء أو تناسوا أن القرب والبعد مسألة نسبية ، وألف عام أو أكثر ليس إلا زمناً يسيراً وعهداً قريباً بالنسبة لعمر الدنيا وخاصة إذا عرفنا ما يقوله علماء الجيولجيا الذين يقدرون عمر الأرض بالملايين من السنين والقرون ، ونضيف إلى هذا أن محمداً خاتم الأنبياء ، وأن رسالته هى الكلمة الأخيرة من الله للناس . وبذلك يكون معنى القرب واضحا ، فلا نبى بعده ، ولا رسالة بعده حتى تقوم الساعة .

أما الحياة الآخرة فهى نشأة أخرى يستوفى فيها كل عامل جزاء عمله بالعدل التام والقسط الأوفى ، فكثيراً ما تقصر الحياة الأولى أن تكافئ الأخيار بما قدموا ، أو تجزى الأشرار بما أسرفوا ، والإيمان بوجود إله عادل حكيم يستوجب وجود هذه الدار الأخرى « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » ، « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » ، « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار . »

والإيمان بدار الجزاء والخلود ليس معناه اطراح الدنيا ، واستدبار الحياة والعيش فيها عيشة التواكل والتمنى الفارغ ... كلا فإن استحقاق السعادة فى الآخرة لا ينال إلا بالعمل الدائب والجد المتواصل « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

وحسبنا فى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ما فهموا الحياة ولا عاشوها إلا سعيا وكفاحا ، وضربا فى الأرض ، وسعياً فى كل ميدان من ميادين الحياة ، لم يقعدوا ولم يكسلوا انتظاراً للجنة وما فيها من نعيم ، وللآخرة وما فيها من راحة ، كيف وقرآنهم يقول : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

نظام الإسلام :

والنظام الإسلامى لا يقتصر على ناحية

من نواحى النفس أو المجتمع أو الحياة ، أو يهتم بها على حساب غيرها .. كلا إنه يشمل كل النواحى وينظم كل العلاقات الروحية والمادية . الفردية والاجتماعية ، ويقيمها جميعاً على أساس من التوازن والعدل فيما بينها بالقسطاس المستقيم ، فلا يطغى المادة على الروح ، كما هو سمة اليهودية ، ولا يهضم جانب المادة من أجل الروح كما هو دعوى النصرانية . ولا يطغى الفرد على حساب المجتمع كما هو نظام الرأسمالية ، ولا المجتمع على حساب الفرد كما هو الشأن والواقع فى الشيوعية .

ذلك أن هذا النظام لم يأت نتيجة ثورة جامحة كانت رد فعل لأوضاع جائرة فقاومت التطرف فى اليمين بالتطرف فى اليسار كما هو الشأن فى الثورات التى جمحت دائما وجاءت بأنظمة شكا الناس منها وعدلوها بعد زمن قليل .

ولم يضع هذا النظام فرد أو مجموعة أفراد من البشر تحكم عليهم مواريثهم وبيئتهم وظروفهم وثقافتهم - فضلا عن أهوائهم وشهواتهم - فيتجهون بالنظام الذى يضعونه وجهة ذاتية توافق تكوينهم الشخصى ، وظرفهم الزمنى ، ووضعهم الإقليمى ونزوعهم القومى . . ولذلك لا يلبث الناس بعد حين أن يتبينوا نقصا أو انحرافا فيما وضعوا أو وضع لهم من نظام .. فيقومون أو يطالبون بالتغيير والتعديل والتبديل . . . أما نظام الإسلام فواضعه هو الله رب الناس ملك الناس إله الناس ، لا يتحيز لجنس على جنس ولا لطبقة على طبقة ، ولا لجيل على جيل لأنهم جميعاً عباده وهو رب العالمين ، كما أنه تعالى لسعة علمه لا تخفى عليه مصلحة ، ولسعة رحمته لا يريد لعباده عسراً ولا عنتاً « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

عبادة الله وحده :

وأول ما شرعه نظام الإسلام هو تنظيم العلاقة بين الله وبين عباده . فإن العباد لم يخلقوا أنفسهم ، ولا أنشئوا فى الأرض أو فى السماء شيئا مما حولهم من نعم غامرة ، ورحمة سابغة ، فحق الخلق لهم والإنعام عليهم ، والتكريم لهم على من سواهم من الخلق .. يقتضيهم أن يقوموا بشكر ربهم ويعرفوا له حقه ، فيعبدوه وحده لا شريك له ، ويخلصوا له الدين هذا ما تنادى به الفطرة السليمة وهو عين ما جاء به الإسلام « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

وقد نفى الإسلام العبادة مما ألصقها به أهل